ملاحظات حول:

بحث "أدوات التعريب المواكب"

للدكتور عفيف دمشقية

بقلم: عبد العزيز بن عبد الله

لقد استخدم الدكتور دمشقية في بحثه القيم مصطلح (التعريب) للدلالة على مفهوم لم نعهده من قبل ولم يتواضع عليه العرب في استعمالاتهم اللغوية منطوقة او مكتوبة ، فلقد حضرنا لمصطلح (التعريب) دلالات اربع : اولاها ، ما يستعمله المصطلحيون حين يتحدثون عن اللفظ (المعرب) اى اللفظ الاجنبي المنقول الى العربية بلفظه ومعناه دون شكله المكتوب، وثانيتها ، ما يظهر احيانا في الكتب المترجمة من استعمال كلمة (التعريب) كمرادف لكلمة (ترجمة) فيقال الكتاب الاجنبي من تعريب الاستاذ فلان ، وثالثتها ، استخدام اللغة العربية في الادارة والتعليم في قطر بدلا من لغة اجنبية كما هو الحال في تعريب الدواوين ايام الخليفة عبد الملك بن مروان وما تأمل أن يتحقق في التعريب العاجل في بعض الاقطار العربية ، ورابعتها تعريب الامصار والقبائل اى جعل استخدام اللغة العربية وسيلة تواصل حضاري وثقافي .

اما الدكتور دمشقية فنستشف من عنوان بحثه ومضمونه أنه استخدم (التعريب) للدلالة على تنشيط لغة عربية فصيحة مشتركة (او ما اسماه بـ « الزاموز » المشترك) وتعميم نشرها في الوطن العربي لمعالجة ظاهرتين لغويتين يطلق عليهما علماء اللسانيات الاجتماعية اسم (الازدواجية) . وهاتان الظاهرتان هنا اولا : تعايش اللغة العربية الفصيحة في كل قطر مع لغة عربية عامية بصورة تكاملية اى أن لكل منهما استخداماتها الخاصة في المجتمع اللغوي . وثانيا : تعدد العاميات في الوطن العربي .

ونحن نتفق مع الباحث الفاضل في كثير من الوسائل التي ذكرها في سبيل تعميم اللغة الفصيحة المشتركة في الوطن العربي « تسهيلا لتواصل افراد الامة العربية فيما بينهم ، وشحذا لاحساسهم بالانتماء والولاء لمجتمع لغوي واحد ، لانه امتن اشكال المجتمعات » كما يؤكد الباحث . ولنا ملاحظات نسوقها هنا .

اولا ، نطمح دائما الى ارتكاز المقالات على بحوث تجريبية موضوعية او دراسات احصائية واضحة، لكن تكون نتائج هذه المقالات اقرب الى الصواب وتوصياتها اكثر فائدة ، لا أن تقدم نظرات عامة بعضها جرب وصحح وبعضها لم يجرب . فعندما نتحدث مثلا عن اللغة التي تستخدمها الاذاعات العربية . لا

نستطيع أن نجزم بأن « معظم برامجها بالفصحى » ما لم نقم بدراسة احصائية لهذه البرامج والمدة التي يستخدمها كل برنامج . فقد وجد باحث آخر قام بمثل هذه الدراسة الاحصائية ان « معظم برامج الاذاعات في ثلاثة اقطار عربية تستخدم العامية بدلا من الفصحى » (1) فهي كثيرا ما تستخدم العامية في الاغاني والبرامج المهنية للفلاحين والعمال ، والمسرحيات والتمثيليات الاذاعية ، والبرامج الفولكلورية . ويكاد يقتصر استعمال الفصحى على البرامج الدينية والنشرات الاخبارية ، والتعليقات السياسية .

ثانيا ، عندما نتحدث عن تيسير اللغة الفصحى في السينما والمسرح لتكون قريبة من افهام عامة الناس ليتفاعلوا معها بيسر ، ينبغي ان لا يغيب عن اذهاننا التمييز بين نوعين من القدرة اللغوية (2) لدى الناطقين باللغة هما : القدرة الاستيعابية والقدرة التعبيرية ، وتشير القدرة الاولى الى قابلية الناطقين باللغة رغم ضعف مستواهم الثقافي بل اميتهم أحيانا لفهم اللغة منطوقة أو مكتوبة ولو بصورة اجمالية ، اما القدرة التعبيرية فهي قابلية الناطقين باللغة للتعبير بتلك اللغة شفهيا أو تحريريا . وقد تختلف القدرة الاستيعابية عن القدرة التعبيرية لدى الفرد الواحد . وبصورة عامة يتفق الباحثون على ان عامة الناس في الوطن العربي يتوفرون على قدرة استيعابية للغة العربية الفصحى على الرغم من عدم تمكنهم من التعبير بها بصورة صحيحة او طليقة ، وذلك راجع الى أن متطلبات القدرة التعبيرية اكثر واصعب من متطلبات القدرة الاستيعابية ، والى وجود مناطق التقاء واتفاق تتفاوت كما وكيفا من لهجة الى اخرى بين الفصحى والعامية على المستويات الصوتيه والصرفية والنحوية والدلالية . ولهذا كله فنحن لا حاجة بنا الى تحميل مشاق تبسيط اللغة الفصحى ومخاطره، لان لعامة الناس القدرة على فهم اللغة الفصحى المعاصرة . فالرجل العامي المغربي يستمع مثلا الى اذاعة القاهرة ويفهم مجمل الكلام وفحواه .

ونحن لا نحبذ الارتكاز على التيار الشعبي الجهوي في التعبير عن مفهوم بلغة مبسطة بدعوى الواقعية ، فهذا معناه دعم الاشتراكية في اللهجات ، وانما نقر بوجود واقعية اقليمية وواقعية مشتركة ، وندعو الى الارتفاع من الواقعية الاقليمية الى الواقعية المشتركة انطلاقا من بساطة المصطلح دون تعمق الجانب الفني زيادة عن الحد الطبيعي المشترك .

ثالثا ، عندما نتحدث عن تيسير العربية الفصحى ، ينبغي ان نقترح خطة عمل واضحة تتبناها المجامع اللغوية العربية ويطبقها الكتاب والمؤلفون ورجال الاعلام . وفي نظرنا ان عناصر الخطة المقترحة ترتكز على اسس ثلاثة هي :

1) الاقتصار على استعمال ما هو فصيح مفهوم في عمومه أو اجماله من طرف الشعوب العربيه .

2) عدم استعمال ما له طابع اقليمي عميق .

3) احياء كل كلمة عامية لها أصل فصيح والعمل على تعميمها قوميا .

رابعا ، لا شك ان الاطفال يشكلون اجيال المستقبل الذين يستخدمون اللغة العربية الفصيحة اساس وحدتنا العربية وركنها المكين . وينبغي ألا يغيب عن اذهاننا ان مشكل تلقين الاطفال بلغة فصيحة مشتركة هي مسالة ذات علاقة بتوحيد المصطلح الحضاري العربي وهي في شقها الاكبر مسالة محلولة تلقائيا عن طريق توحيد المؤسسات المختصة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للمصطلح الحضاري ، مثال ذلك توحيد المصطلحات في خصوص الانسان وعلم الحساب ودروس الاشياء التي تنتقى منها المصطلحات العلمية في المستوى الابتدائي ، وكذلك المستوى الثانوي . والمفهوم الحضاري هنا ينصب على غالب المصطلحات التي تشكل القاموس الاساسي للطفل في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية . يبقى عنصر محدود له تقنية ادق لا يدخل في صلب المستويين الابتدائي والثانوي وانما يبدأ مع التعليم العالي اي مع التخصص وهذا العنصر لا علاقة له بموضوع ادب الاطفال .

وختاما لا يسعني الا ان اشيد ببحث الاستاذ الدكتور عفيف دمشقية لسلاسة عرضه ووضوح افكاره ومساهمته الايجابية في حركة تعميم اللغة الفصيحة المشتركة في جميع انحاء الوطن العربي .